Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ويتَوفَّر «واد غير ذي زرع» تعود ذاكرة المتقبل إلى نص آخر فتستحضره برمته وإذا النص القابل نصّان: نص حاضر هو الواقع تحت الحس الفوري ونص غائب مستحضرَ هو المخزون في الذاكرة. فتتضاعف أبعاد النص القابل الدلالية إذ يُشحن بما تراكم في النص المستحضرَ من دلالات خلال العصور تتشابك مع دلالاته الآنية فتزيد في ثرائها. وإذا الكلام نسيج يربط الحاضر بالماضي والفرد بالجماعة والآنية بالتاريخية.

وبالجمع بين السجلين يتوسّل ابن الرومي بالتاريخي الاسطوري المقدّس للتعبير عن حالة عادية فيسمو العادي فيعانق ذلك الخارق. وهذه مفارقة أولى.

ولاقتران «واد غير ذي زرع» بجملة من المعاني أهمها المعاناة والحرمان والمسكنة والصّبر كذلك على ما امتحن الله به الأنبياء يكون ابن الرومي مسكيناً محروماً إذ لم يجد بغيته عند الممدوح. وتزداد هذه المسكنة بتردّد الذهن بين القطبين اللذين يحكمان النص: ابراهيم الخليل وابن الرومي حيث يلتحق هذا الأخير بمصاف الأنبياء (والشعراء أقرب الناس منهم)، وكلّما زادت مسكنته زاد ذنب ممدوحه لأنه أنكر الجميل ونقض الوعد.

فالملفوظ المقتبس كما ترى جرِّد من كل ما كان يصاحبه في سياقه الأصلي، ولكنه تجريد ظاهري إذ لم يتخلّص من معانيه المصاحبة له، وهي فاعلة في فهم النص القابل كما تبيّنا. فالملفوظ المقتبس مثل جبل الجليد العائم لا يظهر منه إلا جزء صغير ولكن أهم جزء فيه مخفي في الأعماق هي الماء عند جبل الجليد وهي التاريخ والثقافة (الذاكرة) عند الاقتباس. وهذا من أهم مظاهر البلاغة في الاقتباس والتضمين.

ولنجاح الاقتباس أو التضمين لا بدّ أن ينتمي كل من الباث والمتقبّل إلى مجال ثقافي واحد حتى يتمكن المتقبّل من الغوص على المعنى المقصود. فالانتماء الثقافي يمكنه من أن يملأ فراغاً فاصلاً بين سياقين سياق النص المصدر وسياق النص القابل. وبين السياقين درجات مختلفة من التحوير والتغيير.

ومن أشكال هذا التحوير أن ينثر الشعر إذا كان النص القابل نثراً ويسمّى «الحل» عند البلاغيين:

كتب ابن الأثير في وصف قلم:

ـ فلا تحظى به دولة إلّا فخرت على الدول، وغنيت به عن الخيل والخول، وقالت:

«أعلى الممالك ما يبنى على الأقلام لا على الأسل».